## الإصلاح التربوي عند عبد الحميد بن باديس

يعد عبد الحميد بن باديس أحد أبرز رجالات الإصلاح خلال النصف الأول من القرن العشرين، ليس في الجزائر فقط، بل في العالم العربي والإسلامي ككل، وذلك نتيجة لما قام به في مجال الإصلاح، والمجهودات التي بذلها في سبيل إصلاح حال وطنه وأمته، وإخراجها من ويلات التخلف وتخليصها من قيود الاستعمار الذي كانت تعاني منه، ف" المحرك الأساس للحركة الإصلاحية في الجزائر، والذي تصورها أولا واستشرف ضرورتها، والذي صاغ مشروعها واستثار الإرادات الطيبة القادرة على مساعدته في مسعاه والذي كرس اكبر طاقة جسدية وفكرية لانجازها هو الشيخ عبد الحميد بن باديس، في الواقع إن تاريخ الحركة الإصلاحية الجزائرية يقترن أساسا بتاريخ الحياة النشطة لهذا الرجل "

لقد اتخذ ابن باديس – كغيره من زعماء الإصلاح – من التربية وسيلة للإصلاح الاجتماعي، الذي يعد وسيلة لمحاربة الاستعمار الذي سعى بكل ما يستطيع لتحطيم المجتمع الجزائري، وذلك من خلال تحطيم قيمه والقضاء على هويته، والتاريخ اكبر شاهد على الأساليب الدنيئة المعلنة والخفية التي اتبعها في سبيل ذلك .

لقد واجه ابن باديس ذلك- ومعه رفاقه المخلصين من أبناء هذه الأمة - بوسائل بسيطة ومحدودة وبمجهودات ذاتية كبيرة، فاتخذ من المسجد والصحافة والجمعيات والتواصل المباشر مع أفراد المجتمع وتوعيتهم وإرشادهم إلى الطريق الصحيح وسيلة لذلك .

ويمكننا القول بدون مبالغة، أن ابن باديس قد نجح نجاحا باهرا في تحقيق أهداف حركته الإصلاحية التربوية والاجتماعية، وكذا السياسية، وهو ما سنتطرق إليه لاحقا .

اهداف الحركة الإصلاحية الجزائرية الباديسية :

سعت الحركة التي قادها ابن باديس إلى تحقيق مجموعة من الأهداف يمكن إيجازها في النقاط التالية :

- تصحيح العقيدة الإسلامية في نفوس المسلمين بما يعود بهم إلى منبعها الأصيل، فكلنا نعلم أن بعض الطرق الصوفية المغالية قد سيطرت على الفكر الإسلامي، والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر سيطرة مذهلة، وهو ما أدى إلى تعطيل الفكر وشل جميع الطاقات الاجتماعية الأخرى، وهو ما

دفع بابن باديس وجماعة من رفاقه العلماء السنيين السلفيين إلى إعلان الحرب ضد هذه الطرق الضالة التي أفسدت إيمان الجزائريين .

- نشر التربية والتعليم والثقافة بين أفراد الأمة ذكورا و إناثا للخروج بهم من التخلف الذهني والفكري الناتج عن سياسات التجهيل التي اتبعها المستعمر الغاشم

- العمل على ربط أجزاء الوطن مع بعضها في وحدة وطنية، وبالتالي محاربة سياسات التفرقة التي لجأ إليها الاستعمار الفرنسي من خلال " بث الخلاف بين عناصر المجتمع الجزائري، بين العرب والبربر، وحاولوا أن يقنعوا البربر أنهم من سلالة أروبية، وأن لهم لغة خاصة لا ينبغي التفريط فيها، وأن يمنعوا تعليم العربية للبربر " .

- اختيار ميادين ووسائل المواجهة مع الاستعمار وعملائه، ثم مع الاستعمار وجها لوجه .

- حماية مقومات الشخصية الوطنية كالدين الإسلامي واللغة العربية وصونها من هجمات المستعمر الغاشم، التي كانت تهدف " إلى تكوين جماعات منفصلة عن مقومات الشخصية الإسلامية العربية، والى تحويل الشعب الجزائري كله وإدماجه مع الحضارة الأوروبية والثقافة الفرنسية عن طريق نشر اللغة الفرنسية، ومقاومة الشريعة الإسلامية التي ترى أنها هي العقبة الوحيدة التي تحول دون الاندماج "

التربية عند ابن باديس :

لقد برز خلاف بين المصلحين العرب حول نقطة الانطلاق في العمل الإصلاحي، بين من رأى بوجوب البدء بالإصلاح السياسي ،لأن ذلك يسهل من العملية ويجعل نتائجها مضمونة، وقد مثل هذا الاتجاه جمال الدين الأفغاني، وبين من رأى بوجوب الانطلاق من الإصلاح الاجتماعي والتربوي، الذي حتى وإن كان طريقه طويلا فإن نتائجه أكيدة، وقد كان هدا الاتجاه ممثلا في الشيخ محمد عبده وكثير من رجالات الإصلاح الآخرين .

و ابن باديس ينتسب إلى الاتجاه الثاني الذي يرى أن الإصلاح الحقيقي يجب أن ينطلق من الإنسان، وان الوسيلة الحقيقية للإصلاح هي تطهير القلوب و تغيير النفوس، وهو ما يؤدي في النهاية إلى تغيير المجتمع .

وفي هذا يقول ابن باديس "إن الذي نوجه إليه الاهتمام الأعظم في تربية أنفسنا وتوجيه غيرنا هو تصحيح العقائد ، وتقويم الأخلاق فالباطن أساس الظاهر"

ان الوسيلة التي تمكننا من إصلاح الإنسان و تطهير قلبه و تغيير نفسه هي التربية التي جعلها ابن باديس أساس الإصلاح الثقافي و الاجتماعي و السياسي ، فـ"لن يصلح المسلمون إلا إذا صلح علماؤهم ، لأنهم بمثابة القلب للأمة ، ولن يصلح العلماء إلا إذا صلح تعليمهم " ولن يصلح التعليم إلا إذا رجعنا به للتعليم النبوي في شكله و موضوعه و في مادته وصورته.

لقد أدرك ابن باديس مبكرا الدور الحقيقي و المهم الذي يمكن أن تلعبه التربية في عملية الإصلاح و التحرير، لذلك فقد اتفق مع الشيخ البشير الإبراهيمي على السير قدما في هذا الطريق ، يقول الإبراهيمي :"...كانت الطريقة التي اتفقنا عليها أنا و عبد الحميد بن باديس في اجتماعنا بالمدينة المنورة في عام 1913 في تربية النشء هي : ألا نتوسع له في التعليم في العلم ، و إنما نربيه على فكرة صحيحة و لو مع علم قليل ، فتمت لنا هذه التجربة في الجيش الذي أعددناه من تلاميذ"

لم يكتف ابن باديس بالقول ، بل حول أقواله إلى أعمال و أفعال على أرض الو اقع، و ذلك من خلال ما قام به في الميدان خلال أكثر من ربع قرن من الزمن، و هو ما سنتطرق إليه لاحقا .

منابع التربية عند ابن باديس :

لاشك أن ابن باديس هو صاحب مدرسة تربوية عريقة ، وقد استمد أسسها من العديد من المنابع التي يمكن تحديدها فيما يلي :

1) الدين الإسلامي بكل ميراثه الروحي والثقافي والحضاري والأخلاقي، وذلك من خلال الاعتماد على أصول الإسلام الثابتة، ونقصد بها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فابن باديس قبل أن يكون مربيا قديرا، فهو رجل متدين على طريقة السلف الصالح، لذلك فقد شكل الدين الإسلامي المنبع الأصيل لفلسفته التربوية .

2) و اقع المجتمع الجز ائري بكل ما يحمله من مشاكل وأمراض وتخلف، فابن باديس لم يتعالى على مجتمعه، ولم يسبح في الخيال، بل انطلق في كل تفكيره من الو اقع المعيش لأبناء وطنه وأمته، وحاول إيجاد حلول و اقعية لمشاكله المزمنة

3) التفكير التربوي لدى زعماء الإصلاح في العالم العربي :

لقد رأينا سابقا أن هناك علاقة وطيدة قد نشأت بين ابن باديس وبعض رواد الحركة الإصلاحية في العالم العربي، وبالتالي فمن الطبيعي أن تتأثر أفكاره التربوية بما قدمه أولئك المصلحين من أراء وتصورات تربوية سديدة .

4) تجربته في الميدان : فنحن نعلم أن ابن باديس قد زاول مهنة التعليم والتربية لمدة طويلة، بدءا من سنة 1913 بتونس، ولم تتوقف رحلته التدريسية إلا بوفاته، وقد كان لهذه التجربة الطويلة انعكاسا مباشرا على تصور اته و أفكاره التربوية .

أهداف التربية عند ابن باديس :

ليست التربية عند ابن باديس مجرد تلقين للمعارف والمعلومات ، بل هي عملية فلسفية تهدف إلى تحقيق العديد من الغايات .ومنها :

1) كمال الحياة الفردية والاجتماعية : يقول ابن باديس في هذا الصدد إن ما نأخذه من الشريعة المطهرة علما وعملا فإننا نأخذه لنبلغ به ما نستطيع من كمال في حياتنا الفردية والاجتماعية ، والمثال الكامل لذلك كله هو حياة محمد صلى الله عليه وأله وسلم في سيرته الطيبة " ومعنى هذا أنه يهدف إلى بناء الشخصية الإنسانية المتكاملة في مختلف جو انبها الجسمية والعقلية و العملية و الأخلاقية .

ويتطابق هذا مع ما ذهبت إليه التربية الحديثة التي جعلت من التنمية المتكاملة للشخصية الإنسانية هدفا لها .

2) خدمة الإنسانية ومساعدة الفرد على النمو في هذا الاتجاه الذي يحترم الإنسانية باختلاف مذاهبها ونزعاتها ، وفي هذا يقول "إن خدمة الإنسانية في جميع مظاهر تفكيرها ونزعاتها هو ما نقصده ونرمى إليه وتعمل على تربيتنا وتربية من إلينا عليه "

يتحقق هذا الغرض في نظره بواسطة الإسلام أولا، وبخدمة الوطن ثانيا، ذلك إن الإسلام يحترم الإنسانية في جميع أجناسها ، كما يعتقد إن خدمة الوطن تأتي في الدرجة الأولى ،ثم تأتى خدمة الوطن المغربي ، ثم خدمة الوطن العربي الإسلامي ، وهو ما يؤدي لا محالة إلى خدمة الإنسانية قاطبة.

3) تكوين جيل قائد في الجزائر:هذا الجيل في نظره هو أساس النهضة والطريق الصحيح لإخراج الجزائر من ويلات التخلف والانحطاط وتحريرها من الاحتلال الغاشم، ويحدد ابن باديس معالم هذا الجيل عند ما يقول : فإننا نربي والحمد لله تلامذتنا على القران ،ونوجه نفوسهم إلى القرآن من أول

يوم وفي كل يوم ، وغايتنا التي ستحقق إن يكون القران منهم رجالا كرجال سلفهم ، وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلق هذه الأمة أمالها ، وفي سبيل تكونهم تلتقي جهودنا وجهودها " .

وقد نجح ابن باديس في تكوين هذا الجيل القائد في الجزائر، بحيث تخرج على يديه العشرات من الشباب الغيورين على أصالة ومقومات هذه الأمة ، وهؤلاء الشباب هم الذين قادوا ثورة التحرير وثورة البناء فيما بعد .

4) المحافظة على الشخصية الجزائرية :

إن الغرض الرئيسي للتربية الباديسية هو المحافظة على مقومات الشخصية الجزائرية ذات البعد العربي الإسلامي ،وحمايتها من الهجمات الحاقدة من قبل الاستعمار الفرنسي ، وكذا تطهيرها مما علق بها من خرافات و أباطيل ، لذلك فقد تلخصت مبادئ جمعية العلماء بصفة عامة في الشعار التالي "الذي ينسب إلى الشيخ عبد الحميد ابن باديس ،وهو "الإسلام ديننا ،العربية لغتنا والجزائر وطننا

وسائل الإصلاح التربوي عند ابن باديس :

إن عملية الإصلاح التربوي ليست عملية سهلة، بل هي على العكس من ذلك عملية صعبة وشاقة وتتطلب صبرا وحكمة ونضالا طويل المدى، وهذا ما أدركه ابن باديس جيدا، لذلك فقد اعتمد على وسائل مناسبة للغاية التي كان يصبوا إليها، ويمكن تحديد هذه الوسائل فيما يلي :

العمل المسجدي :

لقد لعب المسجد دورا مهما في تاريخ الإسلام، بحيث شكل مكانا للعبادة، ومكانا لعقد الاجتماعات واللقاءات السياسية والعسكرية، ومكانا للتربية والتعليم والتوجيه الأخلاقي والديني والاجتماعي، وقد بقي المسجد على هذه الحال مدة طويلة من الزمن إلى غاية ظهور مؤسسات أخرى حلت محله، واختزلت مهامه في أداء العبادات فقط .

لقد احتل المسجد مكانة هامة في نفوس المسلمين، لذلك فقد جعله المصلحون نقطة انطلاق في حركتهم الإصلاحية و النهضوية، وهو الأمر نفسه الذي قام به الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي اعتمد بشكل كبير على المساجد كوسيلة للإصلاح التربوي والأخلاقي .

لذلك " فقد رابط الشيخ في الجامع الأخضر بقسنطينة أكثر من ربع قرن يعلم ويربي الشبيبة بالنهار ويعظ ويرشد ويفسر القرآن الكريم ويشرح الحديث النبوي الشريف للمواطنين الكبار بالليل " وهو ما مكنه من بعث نهضة عربية إسلامية أعادت الاعتبار لمقومات الأمة وحمتها من المخططات التدميرية التي حاكها ضدها المستعمر و أتباعه

لكن، وإن كان الجامع الأخضر قد شكل النقطة الرئيسية للنشاط الإصلاحي الباديسي بعد عودته من البقاع المقدسة، فهذا لا يعني أنه قد اقتصر عليه، فقد علم في معظم المساجد المنتشرة في أرجاء مدينة قسنطينة .

## العمل الصحفي :

لاشك أن للصحافة دورا تربويا لا يقل أهمية عن دورها الإعلامي، فهي وسيلة تربوية مهمة من شأنها أن تساهم في توعية المجتمع وإصلاح مفاسده، وقد يكون دورها أكثر فعالية من باقي المؤسسات الأخرى، وهذا ما يؤكده المختصون في علم النفس الاجتماعي الذين يرون بأن وسائل الإعلام تلعب دورا مهما في عملية التنشئة الاجتماعية للفرد

لذلك فقد كانت الصحافة وسيلة مهمة من وسائل الإصلاح التي استند إليها رجال الإصلاح في العالم العربي الإسلامي، فقد أسس الأفغاني رفقة محمد عبده مجلة " العروة الوثقى "، في حين أسس الكواكبي مجلتي " الشهباء " و " الاعتدال "، وهكذا بالنسبة لاغلب المصلحين ، ورغم أن مصير هذه الصحف كلها كان الغلق والتوقيف ، فإن تأثيرها كان واضحا بين أبناء الأمة .

وكذلك كان الأمر مع الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي أدرك أهمية الصحافة كوسيلة للإصلاح التربوي والاجتماعي، لذلك فقد جعلها " مدرسة هائلة للتربية والتثقيف والتوجيه العام " فأصدر مع رفاقه مجموعة من الصحف كانت فرنسا تغلقها واحدة تلوى الأخرى .

ففي سنة 1925 أصدر " المنتقد " والتي توقفت بعد صدور ثمانية عشر عدد منها، ليحل محلها " الشهاب " في نفس السنة، وكانت أسبوعية، ثم تحولت سنة 1929 إلى مجلة شهرية، وقد استمرت هذه المجلة في أداء رسالتها إلى غاية الحرب العالمية الثانية فتوقفت في سبتمبر 1939 .

وخلال مدة صدور " الشهاب " كانت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تقوم بنشاط صحفي مماثل، وذلك من خلال إصدارها لجرائد أسبوعية كصحيفة " السنة " (1933) وصحيفة " الشريعة

" (1933)، وصحيفة " الصراط " (1933)، وأخير جريدة " البصائر " (1937) وهي الجريدة الوحيدة التي استمرت في الوجود إلى غاية الثورة الكبرى، حيث توقفت سنة 1956

إن هذا العمل الصحفي الكثيف يدل على " النشاط الفكري وعلى ظاهرة القلق التي هي علامة على اليقظة والوعي بالمسؤولية، وخطوة في سبيل تغيير المظاهر الاجتماعية، ومحاولة لإعادة المجتمع إلى " أداء وظيفته التاريخية ، وإدراك نفسه التي نسيت التاريخ أو نسيها التاريخ

لقد جعل ابن باديس من الصحافة مدرسة للتهذيب والتربية والتوجيه، فقد كان " يفرض على قارئه لأول مرة التأمل في مصيره الديني والسياسي جاعلا إياه يعي وضعه بوصفه مسلما جزائريا ومستعمرا " .... كان يدعوه إلى الإسهام في عملية إحياء الشخصية الجزائرية وبعث الثقافة الوطنية العربية

**: العمل الجمعوي**

لقد كان إتباع أسلوب إنشاء الجمعيات والنوادي أسلوبا مشتركا بين جميع الحركات الإصلاحية العربية، وذلك للفضاءات التواصلية التي توفرها، رغم أن أغلب تلك الجمعيات كان سريا، وذلك . نظرا للتضييق الذي كان ممارسا عليها

لقد أدرك ابن باديس ما للعمل الجمعوي من فائدة في الإصلاح التربوي والاجتماعي لأبناء الأمة، فعمد إلى تأسيس عدد من الجمعيات التربوية والعلمية، منها جمعية التربية والتعليم الإسلامية التي تأسست عام 1931 ، التي حدد معالمها الرئيسية فيما يلي " بنى القانون الأساسي للجمعية من الوجهة التربوية على تربية أبناء وبنات المسلمين ( الجزائريين ) تربية إسلامية بالمحافظة على دينهم ولغتهم وشخصيتهم .... ومن الوجهة التعليمية على تثقيف أفكارهم بالعلم وباللسانيين العربي والفرنسي وتعليم الصنائع .... ومن الوجهة المالية تعويد الأمة على العطاء المنظم، وتوسيع نطاق الجمعية بجعل الاشتراك فيها "..... فرنكين

كما أن جمعية العلماء من جهتها قد أولت عناية كبيرة بفئة الشباب من خلال عنايتها بتربيتهم وتوجيههم توجيها دينيا وخلقيا واجتماعيا ووطنيا

كما كونت الجمعية عددا من النوادي، والتي كان الهدف منها هو ربط الشباب الجزائري في شبكة من العلاقات الاجتماعية والوطنية والإسلامية من أجل تحقيق الغايات التالية :

- حماية الشباب من عوامل الانحراف والفساد الخلقي والاجتماعي خصوصا في مرحلة المراهقة

- استغلال طاقات الشباب فيما يعود على الأمة والوطن بالنفع والفائدة

- تربية الشباب تربية قومية ووطنية سليمة حتى لا يحرفهم تيار الفرنسة والتغريب الذي كان يهدد الوطن كله في الثلاثينات

## التربية والسياسة عند ابن باديس

هل كان لابن باديس نشاط سياسي ؟ إن هذا ما حاول أن ينفيه بعض الباحثين الذين أرادوا أن يفصلوا بين الحركة الإصلاحية التي قام بها ابن باديس، وبين الحركة السياسية الوطنية التي كانت موجودة آنذاك ، وحاولوا اختصار عمل ابن باديس وجمعية العلماء في مجرد العمل التربوي التوعوي . ، غير أنهم مخطئون في ذلك لعدة أسباب

وأول هذه الأسباب أن التربية عند اغلب الفلاسفة هي نوع من السياسة، بل هي السياسة ذاتها .فأفلاطون مثلا بنى جمهوريته المثالية على أساس تربوي مثالي مناسب لها ، كما ان ابن سينا قد سمى التربية بالسياسة ، فتكلم عن سياسة الرجل لأهله و سياسته لولده وسياسته لماله ، وهكذا بالنسبة لكل الفلاسفة و المربين الذين لم يفصلوا أبدا التربية عن السياسة

وبالتالي فان النشاط التربوي الذي قام به ابن باديس هو نشاط سياسي كذلك ، بل قد يكون أكثر أنواع النشاط السياسي فعالية و نجاحا ، والتاريخ يشهد بان العمل التربوي الهادئ والتدريجي كثيرا ما . نجح في تنوير الشعوب وتحريرها من القيود وبأقل الأضرار

لقد اختار ابن باديس الجهاد التربوي كوسيلة لمقاومة الاحتلال الفرنسي ، فلقد" أدرك الإمام بثاقب فكره أعباء المسؤولية التي ستناط بعهدة تلامذته ، فأهلهم لذلك فكريا و أخلاقيا و روحيا ، فكانوا خير خلف له و خير جنود جهزوا لتهيئة الجزائر لثورتها التحريرية نفسيا و روحيا

وبالتالي فقد اختار ابن باديس السلاح الملائم و المناسب الذي يستطيع ان يقاوم به المستعمر، و"يحمي الشعب من خطر الابتلاع و يحفظ وجوده من الاندثار، ويقيم بينه وبين سياسة الاستعمار جدارا يقيه " من عوادي الزمن و عواصف الظروف

وبالفعل فنحن نعتقد أن سلاح التربية هو السلاح الملائم لمقاومة الاستعمار في ذلك الوقت الذي كان يفتقد فيه الجزائريون لأبسط وسائل المقاومة المسلحة ، كما أن الحركة السياسية الوطنية لم تجدي نفعا من جهة أخرى، لذلك فقد كان ابن باديس ذكيا عندما اقربان جمعية العلماء هي جمعية

تربوية إصلاحية وليست جمعية سياسية ، وذلك حتى تتفادى المصير الذي لقيته معظم الحركات السياسية الوطنية آنذاك .

وبالتالي فقد كانت آراء ابن باديس السياسية متضمنة في أفكاره التربوية، بل كانت أحيانا واضحة جلية معلنة ، فقد قال صراحة "إن الأمة الجزائرية ليست فرنسا ولا يمكن أن تكون فرنسا ولا تستطيع أن تكون فرنسا ولو أرادت ، بل هي امة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها وفي دينها ، لا تريد أن تندمج"

وعليه يمكننا القول إن ابن باديس هو الأب الروحي للثورة الجزائرية حتى وان لم يعايشها ، لان ما قام به في مجال التوعية والتربية على مر السنين الطويلة قد مهد الطريق للثورة وأمدها بجيل من الشباب المستعد للتضحية في سبيل لغته ودينه ووطنه.

وفي الأخير نقول إن الإصلاح التربوي الذي قام به ابن باديس قد نجح نجاحا باهرا في تحقيق أهدافه القريبة والبعيدة ، وذلك من خلال إعداده لجيلين متتاليين ومتكاملين هما جيل الثورة وجيل البناء